كلية الآداب واللغات

قسم الفنون

السنة أولى ماستير، مسرح مغاربي/ السداسي الثاني

مقياس: سوسيولوجيا المسرح

المحاضرة رقم 02 بعنوان:

"مطارحات في سوسيولوجيا الفن والمسرح: ماذا عن علم اجتماع الفن وماذا عن مسرحه؟"

كيف يمكن للمنهجية السوسيولوجية أن تساعد على فهم المسرح -الذي هو بجوهره حدث اجتماعي- كظاهرة اجتماعية؟ وكيف يمكن للمسرح أن يساعد على فهم الظواهر الاجتماعية أي دراسة المجتمع وما هو اجتماعي كحالة استعراضية أي من زاوية مسرحية؟

تبحث سوسيولوجيا الفن عن الفوائد الاجتماعية التي يجب أن تحتل مكانها في فن من الفنون، وقد ارتكزت السوسيولوجيا على الأدب ووظيفته بالمجتمع في كثير من الأحوال، بفضل جهود العلماء، 'تين، لانسونت وبلاهانوف'. واعترفت أغلب الآراء العلمية بوجود علاقات كثيرة بين الأدب والفن خاصة فيما يتعلق بالأساليب والأشكال والفروع الفنية، بينما تعتبر 'مدام دوستيل' على رأس الباحثين في سوسيولوجيا الأدب، بما قدمته في فرنسا في القرن الثامن عشر ميلادي من حركة اجتماعية وفكرية

ارتكزت على أبحاث هامة، واستخراجات تاريخية واسعة المدى، تقول إن للأدب وظيفة تربوية لا محالة من التخلص منها أو إهمالها أو الانتقاص من شأنها.

بعد دخول الإذاعة والتلفزيون إلى العصر الحديث، اتجه السوسيولوجيون إلى علاج المواد الأدبية التي تقوم عليها أغلب البرامج في الجهازين غفي محاولات للتعرف على ما يحبه الناس ومالا يحبونه. وفي هذا يقول عالم الاجتماع بيير بورديو: 'إن عالم الفن هو الساحة الأفضل لإنكار الاجتماعي، ولكن بجعل الاجتماعي متصلا ب'الفني' يبطل السحر الذي يلقيه الأخير، ويكشف عن الطبيعة الحقة للأشياء. لذا فإن الاكتشاف الذي سلط عليه الضوء هو أن الفن صفة تخلع على أنواع معينة من الأشياء الموجودة عند ذوي القوة لإحاطتها بالقداسة، وليست صفة أنطولوجية محايدة تعكس السمات الذاتية لتلك الأشياء نفسها'. بالإضافة لا تحلل عوالم الفن فقط من حيث إنتاج 'القوة البورجوازية' كما هي الحال في تحليل بورديو، بل أيضا التركيز على الوسائل العادية للإنتاج والتوزيع الثقافي.

لذا تهتم سوسيولوجيا الفن بالكشف عن جذور أشكال القوى الاجتماعية للمعتقدات والسلوكيات والممارسات ليس فقط للأفراد في 'عالم الفن' مثل أصحاب صلات العرض والنقاد، بل أيضا لتلك المجموعات من الأكاديميين الذين يتخذون 'الفن' موضوعا لبحوثهم. ومن الممكن اقتباس شعار العلماء الباحثين في سوسيولوجيا الفن من الكاتب والشاعر الفرنسي جون جاك روسو في قوله: 'لقد توصلت لرؤية أن كل شيء متصل جذرا بالسياسية، فكل الأشكال الثقافية تعتبر ذات طبيعة سياسية، كأنها محاطة بإحكام بالصراعات بين الجماعات الاجتماعية الأكثر قوة من ناحية والأقل قوة من ناحية أخرى'. فمن هم علماء اجتماع الفن؟.

1_ من ناحية التاريخية، من منظور سلالي (جينيالوجي)، أي بمعنى النسب أي تسلسل الأجداد الذي يتحدر منهم في التاريخ الأبناء والأحفاد.

2_ من الناحية السوسيولوجية، من منظور الوضع المهني، أي لكل شخص وضع مهني أو عمل يمارسه يسهم في تعيين موقعه الاجتماعي.

وبناء لما سبق، يربط كل من "كارل ماركس" و "فريدريك انجلز" بين الفن وبين الصراع الطبقي، ويؤكدان أن الفن جزء من الصراع ذاته، وقد أشارا إلى مفهوم الاستقلال النسبي في النشاط الفكري

للناس فيما يتعلق بموضوعات الأدب والفن ومن هنا تتضح رؤيتهما في تبادلية التأثير بين القاعدة "الاقتصاد" وبين البناء الفوقي، فالتطور السياسي والحقوقي والفلسفي والديني والأدبي والفني كلها تقوم كلها على أساس التطور الاقتصادي، كما لم يربط ماركس بين التطور الإيجابي للمجتمع وبين التقدم في الفنون إذ أن بعض أشكال الفن لا تظهر إلا في المراحل الدنيا من التطور الاجتماعي.

وفيما يتعلق بالفن المسرحي وعلاقته بدرجة استقرار المجتمع، فيذهب جان دوفينيو إلى أن عدم الاستقرار في المجتمعات يعمل على تحفيز الطاقات الفنية كما أنه يستند إلى تفسير الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي 'إيميل دوركايم' للتغييرات التي ظهرت ما بين القرن الرابع عشر والسابع عشر في أوروبا والتي هدفت إلى إقامة الملكيات المطلقة وتنامي العقليات الجديدة، وبين طبيعة المسرح في تلك الحقبة بحيث يرى إميل دوركايم، أنه ما تغير البنى الاجتماعية تضعف السلطة في النظام الاجتماعي ويتغلب في مرحلة التأجج على التوازن. وتصغر قيمة المثل العليا، ومع ضعف رقابة الأحكام المقررة تصل إلى حد من الجموح

وعليه، يرى عالم الاجتماع 'جان دوفينو' أن ظهور موضوع الجريمة أو كل عمل غير سوي يفرض نفسه في هذا العهد عل مشاهد المسرح، ويميز بينها وبين صورة الإجرام التي ظهرت في العهد السابق أو المسرحيات الدينية "Scrametales" حيث كانت صورة المجرم تبدو بأسلوب يظهر طابعها الشرير ذي القيمة الاجتماعية التي تفرض نوعاً من عدم التوازن في القيم فقد ظهرت صورة المجرم بأسلوب تؤكد فيه على إجرامها أو تطرفها بنوع من الرضى المتعصب.

إلا أن ظهر الفن المسرحي منذ القدم في المجتمعات البدائية في الطقوس والعادات واللوحات الدينية، فتحولت فيما بعد إلى عروض مسرحية غنية بفلكلور الشعوب، وقد ساعد تطور الفنون الأخرى تطور العروض المسرحية فأصبحت فنون الرقص والموسيقى من العناصر الهامة في المسرح. ويرتبط المسرح تاريخياً بالدين. فقد تزامن ظهور كليهما في المجتمعات، وعلى الرغم من التعارض المنطقي المفترض بين كل من المسرح ذو الجوهر الديمقراطي والمرن وبين الدين وماله من تأثير في تحجيم الحيوية العقلية لدى الإنسان. إلا أن الطقوس الدينية ذاتها قد مهدت وساعدت في ظهور وتطور المسرح، فقد كان مسرح الأقنعة في اليابان والصين والهند وبورما يرتبط بالتقديس الديني للأجداد.

وبالتالي، تعتبر سوسيولوجيا المسرح جزءا من سوسيولوجيا الفن، وهي علم حديث نسبيا تولد من علوم أخرى سبقته، واغتنى بتأثيرات التاريخ والفلسفة والأنثروبولوجيا والسميولوجيا وغيرها من العلوم الإنسانية، وقد تطور بسرعة كبيرة وباتجاهات متعددة اعتبار من السبعينيات، ويمكن تحديد تاريخ ولادة هذا الفرع من السوسيولوجيا مع صدور دراسة عالم الاجتماع الفرنسي جورج غورفتش 'سوسيولوجيا المسرح' في عام 1956.

بينما تعد سوسيولوجيا الاستقبال في المسرح بوصفها مجالا يشمل دراسة الجمهور كمجموعة بشرية والمتفرج الفرد، وهو الفرع الأكثر تطورا اليوم في هذا المجال يقوم على مبدأ الدراسات التجريبية التي تجرى على جمهور المسرح من خلال وسائل الاستطلاع (الاستبيان والاحصاء)، فتدرس تكوين الجمهور (معدل العمر والوضع الاجتماعي الخ)، ونسبة حضوره وذوقه ودوافعه وأفق التوقع لديه واستقباله للعمل. وبالتالي فإن هذا النوع من البحث يركز في آن واحد ضمن ما سمي بالعلاقة المسرحية la relation théâtrale ، على الاستراتيجية الإنتاجية والدلالية للعمل، وعلى استراتيجية استقباله من قبل المتفرج.

ليتجاوز الفن المسرحي التاريخ الذي يبدأ 'بإسخيليوس' و'شكسبير' وغيرهم، لأنه من بين الفنون جميعها الأكثر التزاما بالتجربة الجمعية للشعوب، فهو إحدى الظواهر الاجتماعية، كما أن تمثيل الأدوار الاجتماعية على المسرح تستثير في الجمهور رفضا أو قبولا أو مشاركة يتميز بها هذا الفن عن بقية الفنون، وتتجلى وظيفة المسرح في كشفه عن الذات الإنسانية بما يعتريها من آمال أو قلق وهموم لكي يستطيع الإنسان الاتصال بالآخرين بنوع من الشعور بالتآزر، غير أن هنالك صورا للمسرح تظهر بصورتها التلقائية لدى المجتمعات. فالاحتفالات الرسمية في المجتمعات الأكثر حداثة تعكس صورا ووظائف مشابهة، مثل حفلات الدفن الرسمية وبعض الأعياد المدنية التي تخدم عرضاً سياسيا، وكذلك القداس وأعياد الأسرة أو الحي هي أعمال تشخيصية، وهي رغبة الجماعات في تأكيد وجودها يجعلها تستعين بالمسرح.، لدى يتجه كثير من المؤرخين للفن المسرحي إلى ربط نشوء المسرح بالدين وإلى بحث علاقة ارتباط نشأتها لدى المجتمعات.

وبوصف التراجيديا صياغة درامية خيالية وليست طقوسا دينية، ظهرت بعد فشل الغزو الفارسي، إن الهزة العصبية التي أحدثتها هذه الحرب في الحياة وفي الموت ربما كانت مرتبطة بتحول الملحمة والشعر

الأسطوري إلى عرض مسرحي، فقد كان الخوف الشديد من فقدان الشخصية الثقافية الخاصة بالمدينة أمام الامبراطوريات الإلهية وأمام غزو الحشود الهمجية، بقدر ما كان هذا الخوف بقدر ما كان انتصار المدن وبقدر ما أصيب إنسان المكان المغلق بصدمة شديدة في شخصيته.

ربما ينبغي أن تكون هذه الصدمة هي نقطة الانطلاق، ومن أجل فصل العرض المسرحي عن الطقوس الأسطورية والدراما الدينية، إن جميع الحضارات تعرف هذه العروض المقدسة أو شبه مقدسة، المسرح الأندونيسي أو الهندي والمسرح الصيني، فلم تظهر التراجيديا إلا حيث حدث صدع بين الاساطير وبين الرغبة الحالية، بين الصورة والمشروع الوجودي لأحد الأجيال المصابة برعب شديد على اثر حدث من الأحداث العامة، فقد امتاز العالم الاغريقي بأنه استجاب للصدمة العصبية التي أحدثها الغزو الفارسي وانفعالات الحرب وذلك بتحول من مجالات المعتقدات الأسطورية التي تشكل أسس الثقافة القديمة.

إن ظهور التراجيديا في المدن الإغريقية وفي المدن وحدها، والقيام بعرض شخصية محددة، منزوعة من السياق الأسطوري القديم مع التركيز على تفردها بعزلتها وسط جو المسرح، ذلك أ، المدينة تبلور زمنا اجتماعيا لا يشبه زمنا غيره، لأنه مبلور في فضاء محدود، فاختيار أنتيجون وأوديب وأورست إنما هو انتزاع من الأساطير القديمة لوجه مفصول عن نظام كامل.

ولا مراء في أن البحث عن العلاقة الجدلية بين المسرح والبنية الاجتماعية يقود إلى الخوض في طبيعة المشكلة الأولى في سوسيولوجيا المسرح، وهي تحديد نوع العلاقة التي تنشأ بين ظهور المسرح وبنيته الاجتماعية المتطورة، كما تنبهت لذلك بعض الدراسات المنهجية الجديدة في سوسيولوجيا الرواية، ذلك أنه لا يمكن فهم لحظة ابتكار مجتمع من المجتمعات لفن المسرح أو خلقه في مكان ما، وزمان ما إلا من خلال كون المسرح تجربة واقعة في الوعي الجمعي وموقفا نابعا منه بالضرورة، ورؤية لما يحدث من تغيرات في البنى الاجتماعية والسياسية، فالمسرح لا نشأ من تلقاء نفسه أو ضمن عوامل خارجة عن الزمن الاجتماعي والمكان الاجتماعي، وإنما يتشكل من ديناميات التغير، وفعلها الدرامي المتبلور في الواقع الاجتماعي.

المكتبة البيبليوغرافية:

- المعجم المسرحي: ماري إلياس/ حنان قصب حسن
- علم اجتماع المسرح، ج1، سيكاي جيرج، تر: كمال الدين عيد
- سوسيولوجيا الفن المسرحي: قرعان ميساء عبد الله درويش
- الأطر الاجتماعية للمعرفة: جورج غوفيتش، تر: خليل أحمد خليل
- سوسيولوجيا جان دوفينو وتمثلاتها في الخطاب المسرحي العراقي المعاصر: جواد كاظم عبد الأمير/ عقيل جعفر مسلم
- أعلام ومصطلحات المسرح الأوروبي: كمال الدين عيد
- سوسيولوجيا الفن: ناتالي إينيك، تر: حسين جواد قبيسي